في الأدب الشرقي

نظرات في الأدب الفارسي

منذ نشأته إلى إغارة التتار

الدكتور عبد الوهاب عزام

– ٢ –

يروى عن الرودكى أنه نظم شعراً كثيراً جداً يقدره بعضهم بألف ألف بيت . وأنه نظم كليلة ودمنة ، ولكن ليس عندنا من شعر الرودكى كله إلا قطع منها نحو ٢٤٢ رباعية ، ومن الحكايات المأثورة المشهورة عن هذا الشاعر ما ذكره نظامى العروضى ، أن الأمير نصر بن أحمد خرج بجيشه الى هراة فاعجب بهوائها وثمارها . وبقى يتردد فى أرجائها أربع سنين حتى ضاق العسكر بذلك . ولم يستطيعوا صبراً عن أوطانهم وأولادهم . فذهبوا الى الرودكى وجعلوا له خمسة آلاف دينار على أن ينظم شعراً يشوق الأمير الى بخارى . فنظم قصيدة وجاء الأمير وهو يصطبح ، فغناها على المزهر فما أتم الأبيات حتى نهض الأمير مسرعاً إلى ركبه لا يصبر حتى يلبس حذاءه ، وتوجه الى بخارى لا يلوى على شىء . فلم يدركه الناس إلا بعد فرسخين ، وهناك قدم له الحذاء فلبسه .

وأول هذه الأبيات :

بوى جوى مولیان آید همی
بوی یار مهربان آید همی
ما یزان یهب علینا نسیم نهر جیحون
وما نزال نشق على بعد روح الأحباء .

ثم يؤثر عن الرودكى شعر من نوع الدوبيت أو الرباعى . وهو ضرب فارسى . فهذا أول شعراء الفرس ينظم على أساليب العرب وعلى أسلوب آخر . وهذا ينبىء بما سيكون عليه الشعر الفارسى الحديث من الجمع بين الصبغتين العربية والفارسية .

ثم نجد هذا الشاعر يسبق الى نظم القصص ، إذ نظم كليلة ودمنة . وهذه ميزة أخرى من مزايا الشعر الفارسى كلف بها الشعراء من بعد .

وبقى الشعراء من بعد الرودكى يرقون الشعر على الزمن حتى بلغ غايته

شجع السامانيون الآداب الفارسية . وللمنصور بن نوح منهم شعر فارسى . فنبغ فى أيامهم شعراء يقاربون الثلاثين . ثم شرعوا يؤلفون ويترجمون الكتب من العربية الى الفارسية . فترجم تاريخ الطبرى وتفسيره — وألف لهم بالفارسية كتاب أبى منصور والهروى فى الطب — ومنه نسخة مخطوطة فى فينا . وهى أقدم مخطوط فارسى (سنة ٤٤٧ هـ) وألف لهم كذلك كتاب فى التفسير . فهذه الكتب الأربعة أقدم نثر فارسى بأيدينا

وأما بنو بويه فليس لهم أثر فى الأدب الفارسى ، وأكثر أمرائهم كانوا شعراء فى العربية . ووزيرهم ابن العميد ، والصاحب من حملة لواء الأدب العربى لا الفارسى ، وحسبنا أن الصاحب لم يقصده به إلا شاعران فارسيان هما المنطقى والخسروى ، على كثرة شعراء العربية الذين مدحوه .

وكان الزياريون فى طبرستان من حماة العلوم والآداب ، ولكن شيخهم قابوس كان أميل الى العربية ، وقد مدحه الخسروى السرخسى من شعراء الفرس . كما اتصل بابنه منوچهر الشاعر الفارسى الذى سمى نفسه منوچهرى تبعاً لسيده — وقد ألف كيكاوس حفيد قابوس كتابه قابوس نامه بالفارسية لتربية ابنه

وكان من المتصلين بقابوس أبو على بن سينا ، وله شعر بالفارسية . وقد ألف كتابه دانش نامه علائى بعد موت قابوس . فأهداه الى علاء الدولة أبى جعفر كاكويه فى اصفهان وسماه باسمه

وكان محمود بن سبكتكين فى غزنة مقصد كبار الأدباء والعلماء . وأثر عنه وعن ابنه محمد شعر فارسى . فمن شعرائه العنصرى والأسدى ، والعسجدى ، والفردوسى الذى قدم له الشاهنامه . فلم يعطه محمود ما أراد فغاضبه وهجاه . وقد ألف شرف الملك من شعراء محمود كتابا فى الديوان بالفارسية سماه كتاب الأصطفا . ويقال ان البيهقى من شعراء محمود أيضا كتب تاريخ محمود بالفارسية . وكتب البيرونى كتاب التفهم فى النجوم بالفارسية والعربية

وفى عصر السلاجقة ، ذلك العصر المديد بغ شعراء كثيرون جداً عدتهم عدتى أكثر من مائة — وأعظمهم الأبورى والخاقانى نظامى الكنجوى ، والأزرقى . وظهير الفاريابى ، وناصر خسرو والخيام ، وبابا طاهر والفصيحى . ومسعود سعد . والأديب صابر ، والمعزى ، وعمق البخارى ، وسوزنى . ونظامى العروضى ومن الصوفية : أبو سعيد بن أبى الخير ، والأنصارى . ثم مجد الدين سنائى . وفى نهاية هذا العصر فريد الدين العطار .

ولاريب أن هذا العصر أزهى عصور الشعر الفارسى —

ومن المؤلفين والكتاب فى هذا العصر نظام الملك الوزير مؤلف سياستنامه . والغزالى والسجزى الفرخى مؤلف ترجمان البلاغة فى الشعر والصناعات البديعية ، والرشيدى السمرقندى مؤلف زينت نامه فى علم الشعر . ورشيد الدين وطواط مؤلف الكتاب الذائع الصيت : حدائق السحر فى دقائق الشعر ، والبهرامى مؤلف غاية العروضيين وكنز القافية . والأسدى مؤلف لغة الفرس ، وشاهر دامه بن أبى الخير مؤلف الموسوعة . نزهة نامه للائى ، الفها لعلاء الدولة ، وخاص بك أمير طبرستان آخر القرن الخامس ، والباخرزى مؤلف دمية القصر . ومؤلف طرب نامه وهى رباعيات فارسية ، وأبو المعالى محمد بن عبيد الله مؤلف كتاب بيان الأديان فى آخر القرن الخامس — ومن مؤلفى الصوفية الهجويرى صاحب كشف المحجوب وهو من أقدم الكتب الصوفية ، ألف فى القرن الخامس .

ومن المترجمين من العربية الى الفارسية . الجرباذقانى ، ترجم تاريخ العتبى للفارسية . وجمال القرشى مترجم الصحاح ، وفراهى الذى نظم قاموسا عربيا فارسيا يقرأ فى مدارس ايران حتى اليوم . والزوزنى الذى كتب معجما عربيا فارسيا سماه ترجمان القرآن ، ونصر بن عبد الحميد مترجم كليلة ودمنة .

وفى العصر القصير الذى بين السلاجقة والمغول نجد من الشعراء العطار وجلال الدين الرومى وسعدى الشيرازى وغيرهم . ونجد من المؤلفين ابن اسفنديار مؤلف تاريخ طبرستان . وفخر الدين الرازى مؤلف الاختيارات العلائية . ونصير الدين الطوسى . وشمس قيس مؤلف المعجم . ومحمد عوفى مؤلف لباب الألباب .

هذه نظرة عامة غير شاملة ولا بالغة . ترينا كيف بدأ الأدب الفارسى شعرا ونثرا . وكيف توالى مع الدول المختلفة — ويكفى هنا أن يقال إن لباب الألباب يحتوى على ٢٧ ملكا نظموا بالفارسية و٤٣ وزيراً . و ٦٠ عالما . ويذكر من الشعراء تسعة وثلاثين ومائة .

ولأجل أن ندل على حظ الأقطار المختلفة من هذا العدد نقول : ان خراسان وهى مهد الأدب الفارسى الحديث بناها ٣١ من العلماء الذين نظموا بالفارسية و ٥٥ من الشعراء . وماوراء النهر ١٣ من العلماء ، و٢٢ شاعرا . والعراق ١٦ من العلماء و١٦ من الشعراء . وغزنة وما يليها ٢٢ شاعرا . فخراسان أوفرها حظا .

بعد هذا يحق لنا أن نسأل ما مميزات هذا الأدب الفارسى الاسلامى فى الشعر والنثر ؟

فأما الشعر فيشارك الشعر العربى فى موضوعه من الهجاء والمدح والغزل والفخر والوصف . فى ميل الى المبالغة — ويمتاز بأشياء :

(١) ذكر ملوك الفرس القدماء . واعطائهم مثل فريدون ورستم ، وزال ، وكاوس جمشيد ، وقد سرى هذا الى الشعر العربى الذى نظم فى بلاد الفرس كشعر بديع الزمان وأمثاله .

(٢) يمتاز الشعر الفارسى بميزتين عظيمتين : الشعر القصصى والشعر الصوفى .

فأما الشعر القصصى فقد أولع الفرس به فى كل عصر . وقد رأينا أن أبان بن عبد الحميد نظم كتاب كليلة ودمنة بالعربية . وأن الرودكى أول شعراء الفرس الكبار نظم هذا أيضا . ومن الأدلة على ولع الفرس بالقصص قصة يوسف وزليخا . فهذه القصة مأخوذة من القرآن . ولكن شعراء العرب لم يهتموا بها . وأما الفرس فقد نظموها مراراً . نظمها من كبارهم الفردوسى وجامى . ونظمها آخرون — ورواية وامق وعذراء التى قيل انها قدمت لعبد الله بن طاهر فأمر بطرحها الى الماء : نظمها العنصرى شاعر محمود الغزنوى ، ثم الفصيحى فى رعاية كيكاوس الزيارى ونظمها أربعة شعراء آخرون .

وحسبنا شاهنامه الفردوسى التى حاكاها شعراء كثيرون فالفرا شاهنامات لم تنل ماناله من القبول والعيث : ومن القصص المنظومة رواية خسرو وشكر ، وبلبل نامه لفريد الدين العطار ، وسلامان وابسال لمولانا جامى وغيرها مما لايتسع المقال لتعديدها .

وأما الشعر الصوفى فقد بدأه أبو سعيد بن أبى الخير من بلدة مهنا فى خراسان ، وابو عبد الله الانصارى من هراة . نظما فيه قطعا ورباعيات ، ولكن لم يكثر فيه التأليف الا بعد مدة طويلة . اذ نبغ طليعة فرسانه سنائى الغزنوى ثم تلاه العطار ثم تلاه إمام الصوفية مولانا جلال الدين الرومى صاحب المثنوى الذى يسمى القرآن فى اللغة الفارسية . ويقال لمؤلفه لم يكن نبيا ولكن أوتى كتابا .

ومن بعد هذه الثلاثة نبغ لسان الغيب شمس الدين حافظ الشيرازى والشيخ عبد الرحمن الجامى الذى يعد آخر شعراء الفرس العظام .

والحق أن اللغة الفارسية تبذ سائر لغات العالم بهذا النوع من الشعر النفسى الانسانى الفلسفى الذى يرتفع عن جدال المذاهب وعصبيات الأجناس . وينفذ الى بواطن الأشياء فيرى الوحدة الالهية المتجلية فى مظاهرها العديدة ؟ (يتبع)